الموسيقى عبْر التّاريخ

د. نضال محمود نصيرات/ الأردن

سارَتْ الموسيقى عبْر تطوُّرها في مختلف المراحل والعصور ضمن سلسلة زمنيّة، كان من الضَّروري أن يُشار إليها كمدخل علمي ننطلق من خلاله لفهم العلاقة بينها وبين التربية كعلم من العلوم التطبيقيّة، وذلك للتوصُّل إلى معرفة وفهم الأسس التربويّة للموسيقى.

وقد عَدَّ المفكرون والفلاسفة الموسيقى عنصراً من عناصر فهمهم للكون بأسره، منذ نشوئها إلى ما وصلت عليه، فنشأت الموسيقى في مجرى حياة الإنسان الاجتماعيّة البدائيّة على هيئة أصوات منتقاة من الطبيعة، تداولها الإنسان بالتَّدريج في مجرى نشاطه الاجتماعي، فاتَّسَمَت حياته بالتبدُّل المستمر، نتيجة تفاعلاته وعلاقاته بالطبيعة والمجتمع، فاتَّخذت الموسيقى أطواراً ومراحل مُتباينة.

وباعتبار الموسيقى -لغة العالم- فهي فنٌّ تربويٌّ كان لها المكان البارز في التربية قديماً وحديثاً، فالموسيقى ليست حديثة العهد في نُظُم التَّعليم، وإذا تمَّ إعادة النَّظر في تاريخ العلاقة بين الموسيقى والتربية، يُلاحَظ أنَّ الاهتمام بالموسيقى بدأ منذ العصور القديمة كالفرعونيّة والإغريقيّة من خلال الاعتناء بالتربية الموسيقيّة.

إنَّ من الحقائق المهمّة في عصر الحضارة الشرقيّة القديمة، والتي تُعتبر أقدم حضارة عرفها البشر، وبالأخصّ الحضارة السومريّة، أنّهم استخدموا

الموسيقى من خلال الطقوس الدينيّة التي تقيمها الدولة السومريّة، وإن كانت ضدّ رغبة الشعب السومري الذي كان يهوى ويعشق موسيقاه البدائيّة التي كانت في إجمالها عاطفيّة صاخبة، ذات حرارة قويّة بواسطة قرع الطبول والرقص الأهوج، وأنّ التربية الموسيقيّة في هذه المجتمعات كانت تقع على عاتق المدرسة، وهدفها هو أن يصبح الفرد قادراً على قراءة الأناشيد الدينيّة والقوميّة القديمة والتَّرانيم الكنسيّة.

وفي الحضارة المصريّة ذات الجذور الفرعونيّة كان الاهتمام بالتربية الموسيقيّة كبيراً جداً، إذ نظر المصريون إلى الموسيقى نظرة ثقافيّة تعليميّة تعلُّمية دينيّة، مازجين الموسيقى بالعلوم الدينيّة الواجب تعلُّمها في المعابد، لذا اتَّخذوا أسلوب التَّلقين أسلوباً تعليميّاً للموسيقى، إذ يتعلّم الفرد الموسيقى بالتّلقين من معلِّمه وبالممارسة عبْر أداء الصَّلوات والطقوس والأناشيد ذات الوظائف الدينيّة المحدَّدة، وأنّ شعوب العراق وسوريا -ومنذ القدم- درجت على هذه المبادئ التربويّة الموسيقيّة نفسها، وخاصة في معابدهم.

وعنيَت الحضارة الإغريقيّة بالموسيقى عناية فائقة، جاعلة نظامها التربويّ بأسره يستند عليها، وذلك من خلال اعتبارها جزءاً مهمّاً من العلوم الأربعة

(الهندسة، الفلك، الطب، الحساب)، لهذا فإنَّ العلماء البارزين في هذه العلوم الأربعة قد ألّفوا في الموسيقى كفيثاغورس الرياضي، وبطليموس الفلكي، وإقليدس الهندسي، وجالينوس الطبيب.

ويُلاحَظ أنَّ أفلاطون مِن أوائل مَن كتبوا في التربية الموسيقيّة وأهميّتها الأخلاقيّة على وجه الخصوص، حيث ربط الموسيقى بالغناء والشعر والخطابة، وحثَّ على أن تكون الكلمات ذات قيمة جماليّة وأخلاقيّة عالية؛ كأن تحثّ على الفضيلة والحق.

أمّا في الحضارة العربيّة وبعد الإسلام، فقد ظهرت في مكة والمدينة أولى المدارس الموسيقيّة التي جعلت من قصور الأمراء والخلفاء ملتقىً للمغنّين والمغنيات والموسيقيّين، واستمرَّت هذه المدارس حتى نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي.

فقد أولى العصر العباسي اهتماماً كبيراً بالموسيقى، ففيه ارتقت الموسيقى وازدهرت، وشاع استعمالها، وأمسى الموسيقيون موضع تشجيع وتقدير من الخلفاء، بالإضافة إلى تأليف مجموعة كبيرة من الكتب المختصّة بعلم الموسيقى ككتاب الموسيقى الكبير للفارابي، وكتاب الأغاني الكبير للأصفهاني،

ورسالة الكندي في خبر تأليف الألحان.

ورغم التطوُّر الذي حدث على الحياة في جميع جوانبها في العصر العباسي بشكل عام، إلّا أنَّ هناك عصراً ذهبيّاً للموسيقى يستحق الوقفة، وهو ما بين (847-842م) وبالتَّحديد في حكم الخليفة الواثق بالله الذي كان موسيقيّاً بارعاً، ومغنياً فذاً، حيث لقي الفن وخصوصاً الموسيقى والغناء من التَّشجيع والتَّكريم ما يجعل المرء يظن أنَّ بلاط الخليفة، ومقره قد تحوَّل إلى معهد للموسيقى بدلاً من كونه مجلساً لأمير المؤمنين.

وظهرت الكثير من المؤلفات الموسيقيّة والكثير من المؤلفين، والعازفين، والعلماء في الموسيقى من أمثال إبراهيم الموصلي وإسحاق الموصلي وزرياب، وأيضاً من العلماء الذين اهتموا بالعلوم والنظريات الموسيقيّة الكندي والفارابي وابن سينا.

تجدر الإشارة في هذا المجال إلى أنه قد حصلت نهضة موسيقيّة في العصر الأندلسي أيضاً ما بين القرن الثامن والخامس عشر الميلادي. تلك النهضة التي ما كادت تنطفئ في الأرض العربيّة منذ القرن الخامس عشر حتى تلقَّفها الغرب لتشتعل من جديد في أوروبا منذ أوائل القرن السادس عشر، وبالتالي أصبحت قرطبة مركزاً موسيقياً وثقافياً ممتازاً.

أمّا في أوائل العصور الحديثة، فقد حدث في الغرب تطوُّر أدّى إلى توسيع نطاق وظيفة الموسيقى، فانتقلت الموسيقى من الكنائس إلى قصور الأمراء والنبلاء الإقطاعيين. وكان ذلك الانتقال طبيعيّاً إذ إنَّ مركز السلطة ذاته قد انتقل من الكنسيّة إلى الحكام المحليّين في أوروبا. فكانت مهمّة الموسيقى عندئذَ هي تأليف مقطوعات يُقصد بها التَّرويح عن الأمير وعن ضيوفه في الحفلات الخاصة، وهدفها إشاعة المرح والسُّرور في نفوسهم.

ويُعدُّ بيتهوفن (Beethoven) أوج المرحلة الكلاسيكيّة وبداية المرحلة الرومانسيّة في الموسيقى. ومع نهاية القرن التاسع عشر ظهرت المدرسة التأثيريّة كرد فعل للرومانسيّة، ففي عام 1860 ظهرت ثورة جديدة في ميدان الموسيقى والتي عُرفت بالموسيقى الجديدة، وقد قامت اتِّجاهات عديدة ضدّ الرومانسيّة في القرن العشرين، حيث ظهر ما يُعرف بالكلاسيكيّة الجديدة

والتي أصبحت ذات أهميّة كبرى؛ إذ شاع من جديد الإقبال على موسيقى باخ (Bach)، وتلا ذلك اهتمام بالغ في إحياء موسيقى العصور السابقة. ومن قادة هذه الحركة الجديدة، هيندميت (Hendmeat)، وسترافينسكي (Stravinsky)، وظهرت حديثاً الموسيقى الجديدة مثل موسيقى الجاز التي رافقت هجرات الأفارقة إلى أميركا وأوروبا، ثم الموسيقات الحديثة مثل البوب والروك أندرول وموسيقى الريف وغيرها.

وأصبحت التربية الموسيقيّة في مجتمعات عصر النهضة ضمن ما يسمى التربية الإنسانيّة، وأصبحت تُعدُّ إحدى مبادئ التربية بشكل عام، وأيضاً اهتمَّت في تنمية مواهب الطفل واستعداداته الطبيعيّة، وسارت في الطريق العلميّة التي تقوم على أسس عقليّة وعلميّة.

أمّا في القرن العشرين، فقد اتَّسع نطاق الاستماع للموسيقى عن طريق وسائل الإعلام (الإذاعة اللاسلكيّة والتسجيلات)، ممّا أدّى إلى بعث نهضة موسيقيّة مهمّة، وتقديم الفن الموسيقي من قِبَل الفنان بحيث يكون خاضعاً لمشيئة السوق، وأصبح المستمع مستهلكاً ينبغي إرضاؤه بأي وسيلة. بهذا أصبح الفن الموسيقي في هذا العصر مختلفاً تماماً عمّا كان عليه في الماضي، حيث أنّ تاريخ الموسيقى في هذا العصر فوجئ بحركة موسيقيّة تكاد ترمي إلى اقتلاع الماضي من جذوره، فأصبح هناك استحداث وتجديدات وانقلابات في الأسلوب الموسيقي الذي يتماشى مع روح العصر الذي نعيش به، وهو عصر الانفتاح على العالم والتطوُّرات الهائلة في وسائل الإعلام والاتِّصال والثورة المعلومانيّة والتكنولوجيّة، فأصبحت صناعة الموسيقى تتكيَّف مع روح العصر، وما ميَّز مرحلة العصور الحديثة هو إدخال التربية الموسيقيّة ضمن المناهج الدراسيّة، التي تقوم على تربية الإنسان، وأصبحت التربية الموسيقيّة ضمن المناهج التربويّة قائمة على حاجات المجتمع وفلسفة التربية والتعليم.

أمّا الحياة الموسيقيّة في العالم العربي، فلا بدَّ من أن نذكر أنّ كتاب (الموسيقى الكبير) للفارابي تضمَّن الأسس والقواعد الموسيقيّة التي يسير على نهجها الموسيقيّون العرب حتى يومنا هذا، حيث تعتبر المقامات الموسيقيّة هي الأساس اللَّحني والنَّغمي للموسيقى العربيّة، وهي تتميَّز بخاصيّة التلوين الغنائي وأدوات العزف الشرقيّة، وكان أوّل ظهور للموشّحات في الأندلس؛ حيث تطوّرت الموسيقى في البيئة الأندلسيّة من خلال ظهور موسيقيين متميِّزين مثل زرياب الذي أضاف الوتر الخامس للعود.

وتأثَّرت الموسيقى العربيّة بالموسيقى الغربيّة منذ منتصف القرن العشرين، وظهر موسيقيون متميِّزون في العالم العربي مثل عبد الوهاب، وسيد درويش، ورياض السنباطي، ويوسف زعرور الكبير، ومحمد القصبجي وغيرهم، كما تأثَّرت الموسيقى العربيّة في التسعينات بتشكيلات موسيقيّة جديدة، حيث مزجت الألحان بين ما هو شرقيّ وما هو غربيّ.

وإذا تأمَّلنا الموسيقى العربيّة، نجد أنها خلاصة فنيّة تنتمي إلى جميع البلاد التي كانت جزءاً من رقعة الحضارة الإسلاميّة، وهي التَّعبير التاريخي لحضارة عظيمة شكَّلَت فيها اللغة العربيّة والحضارة الإسلاميّة محورين أساسيين، فقد تميَّزت الموسيقى العربيّة بالطّابع الصَّوتي النَّغمي، حيث يلعب الغناء والصوت دوراً أساسيّاً في مكوّناتها وأشكالها ■